جريدة "العرب" الدوحة 25 يناير 2009

علاقة ألمانيا بالصراع الأوروبي على الإسلام

محمد م. الأرناؤوط*

مع كتاب د.رضوان السيد «الصراع على الإسلام» (بيروت 2003)، الذي كشف فيه عن بعض جوانب الصراع الإقليمي/الدولي على الإسلام بعد الحرب العالمية الأولى، يأتي الآن كتاب د.عبدالرؤوف سنو ليكشف أكثر عن جذور هذا الصراع على الإسلام بين القوى الأوروبية المتنافسة على النفوذ في العالم، وبالتحديد بين ألمانيا وروسيا وبريطانيا وفرنسا وإيطاليا.
وقد عُرف د.سنو بأبحاثه الجادة في العلاقات الألمانية العربية بالاستناد إلى الأرشيف الألماني، الذي قل من يعمل فيه من الباحثين العرب، ولذلك تأتي أبحاثة دائماً بجديد في هذا المجال، وقد توج أخيراً أعماله بكتاب «ألمانيا والإسلام في القرنين التاسع عشر والعشرين» الذي صدر مؤخراً في بيروت (دار الفرات 2008)، والذي يمكن القول إنه يشكل إنجازاً في الدراسات الأكاديمية حول هذا الموضوع.

يتألف الكتاب الضخم من 611 صفحة من القطع الكبير من أربعة أقسام، وربما كان من الأفضل لو اقتصر عدد الأقسام على الثلاثة الأولى لأن القسم الرابع (ألمانيا والإسلام بعد الحرب العالمية الثانية) كان يمكن نشره بشكل مستقل عن العلاقات الألمانية العربية المعاصرة، حيث يتضمن دراسة عن «أزمة العلاقات بين القاهرة وبون عام 1967» وأخرى عن «مبدأ هالشتاين: الصراع بين الدولتين الألمانيتين في لبنان 1953- 1972» وغيرهما.

وباستثناء ذلك يمكن القول إن معظم الكتاب (420 صفحة) يحمل لنا دراسة نقدية متعددة الجوانب لموضوع «ألمانيا والإسلام» تصل إلى تفكيك بعض الأساطير التي استقرت لعقود طويلة بيننا. ومن ذلك ما ساد من رأي بأن ألمانيا تميزت بصداقة المسلمين، وأن الاستشراق الألماني لم يخدم كغيره الاستعمار الأوروبي، وأن ألمانيا كانت الدولة الأوروبية الوحيدة التي لم تستعمر المسلمين إلخ. وبعبارة أخرى يقدم د.سنو في كتابه الأخير أرضية معرفية جيدة عن تطور الاهتمام الألماني الجديد بالإسلام وتوظيفه لأجل مصالح الدولة الألمانية العليا وصولاً إلى الحرب العالمية الأولى التي وصل فيها الصراع الأوروبي على الإسلام إلى ذروته.

وهكذا يتتبع د.سنو الاهتمام الألماني بالإسلام والعالم الإسلامي من خلال الاستشراق والتبشير وتنصير وتوطين اليهود في فلسطين، ويركز على الانعطاف الذي حصل نتيجة للثورة الصناعية والوحدة الألمانية التي أبرزت مصالح جديدة لألمانيا. ورغم الضغوط التي كان يمارسها أصحاب هذه المصالح على المستشار بسمارك فإنه بقي

يقاوم القيام باختراق الشرق في (الدولة العثمانية) خشية إثارة الدول الأوروبية الأخرى (روسيا وبريطانيا وفرنسا). ومن هنا فقد رفض بسمارك في المقابل طلب السلطان عبدالحميد الثاني في 1883 لتشكيل حلف من ألمانيا والنمسا والدولة العثمانية لمواجهة الحلف الروسي الفرنسي.

ولكن تحفظ بسمارك انهار مع وصول الإمبراطور وليم الثاني إلى الحكم في عام (1888م) الذي قام بانعطاف كبير في السياسة الخارجية الألمانية انسجاماً مع هدفه الكبير: إخراج ألمانيا من «النسق الأوروبي» إلى «النسق العالمي» وهكذا برز مع هذا الإمبراطور «الاندفاع نحو الشرق» الذي تمثل في تدفق الرساميل والقروض الألمانية إلى الدولة العثمانية ومد السكك الحديدية نحو بغداد والبصرة لتصل إلى الخليج الذي يعني مواجهة بريطانيا في أهم منطقة.
وفي هذا السياق أقدم الإمبراطور وليم الثاني على أمور غير مسبوقة في العلاقات بين الشرق والغرب، فقام بزيارة اسطنبول وبلاد الشام (القدس ودمشق إلخ) في 1889 و1898 وأطلق خلال زيارته تصريحات عكست هذه التوجهات الألمانية الجديدة وتركت تأثيرات بعيدة المدى في المنطقة.

لقد كان حجر الأساس في هذا الاندفاع اكتشاف الأهمية الاستراتيجية والعسكرية والاقتصادية لآسيا الصغرى، حيث كان يمكن لألمانيا عبر الطريق البري الوصول بسهولة إلى آسيا الصغرى ومنها إلى بلاد الشام والعراق، حيث يمكن لها بسهولة عرقلة مصالح بريطانيا في مصر والهند. وبناء على هذا الاكتشاف فقد غيرت ألمانيا سياستها باتجاه الحفاظ على الدولة العثمانية بتقديم المساعدات العسكرية والفنية والاقتصادية والسياسية، وذلك على عكس الدول الأخرى (روسيا وبريطانيا وفرنسا) التي كانت تريد تقاسم الدولة العثمانية. وفي هذا السياق فقد اكتشفت ألمانيا وسيلة جديدة لتوطيد الدولة العثمانية ألا وهي تعظيمها كدولة خلافة لكل المسلمين في العالم، فكلما ترسخت فكرة الخلافة زاد التفاف المسلمين حول السلطان عبدالحميد الثاني، وكلما ترسخت صلات المسلمين مع السلطان العثماني زادت فرصة ألمانيا (الدولة الصديقة للخليفة والمسلمين) في تحريك مشاعر هؤلاء المسلمين ضد أعدائها (روسيا وبريطانيا وفرنسا)، الذين كانوا يحكمون مناطق يسكن فيها عشرات الملايين من المسلمين. وهكذا تحولت الاستراتيجية الألمانية إلى تقسيم جديد للقوى الأوروبية: أصدقاء للإسلام (ألمانيا والنمسا) وأعداء للإسلام (روسيا وبريطانيا وفرنسا)!

ولم تأت هذه الاستراتيجية الذكية من فراغ بل بتوصية من بعض المستشرقين الذين عملوا لاحقاً على رأس الدعاية الألمانية لترويج الصورة الجديدة لألمانيا باعتبارها دولة صديقة للإسلام والخليفة. وعلى رأس هؤلاء كان المستشرق ماكس فون أوبنهايم الذي يوصف بأنه «لورنس القيصر» و «الأب الروحي للجهاد الإسلامي». وكان أوبنهايم وراء الخطاب الشهير الذي ألقاه الإمبراطور الألماني خلال زيارته إلى دمشق في 1898 وأعلن فيه عن صداقته لكل المسلمين في العالم وخليفتهم السلطان عبدالحميد، ودشن بذلك سياسة استقلال الإسلام في سبيل مناهضة الدول الأوروبية الأخرى (روسيا وبريطانيا وفرنسا). ففي خطابه الذي صيغت كلماته بذكاء قال الإمبراطور «ليوقن حضرة صاحب الشوكة السلطان عبدالحميد خان الثاني

والثلاثمائة مليون من المسلمين المرتبطين بمقام خلافته ارتباطاً قوياً والمنتشرين في جميع أرجاء الكرة الأرضية، أن إمبراطور ألمانيا سيبقى محباً لهم إلى الأبد». ويلاحظ هنا أن الإمبراطور يفترض أن كل المسلمين في العالم قد بايعوا السلطان بالخلافة وقبلوا به خليفة، وبناء على ذلك يحظون بصداقة ألمانيا لهم! وقد كان لهذه الزيارة والخطبة تأثير كبير في الرأي العام العربي والمسلم إذ سرت إشاعات وتمنيات بأسلمة الإمبراطور وحتى أسلمة ألمانيا، وأصبح أمل المسلمين آنذاك (1900- 1908) بأسلمة ألمانيا واليابان حتى ينتصر الإسلام على أعدائه المتربصين به، وهو ما كان يناسب المصالح الألمانية. ومن هنا يمثل الفصل الثالث «دعوة ألمانيا واليابان إلى الإسلام.. قراءة في الوعي السياسي الإسلامي في القرن العشرين» إضافة مهمة حيث يوضح مدى انتشار هذه الأفكار والتمنيات بفعل الدعاية الألمانية، التي كانت تعمل على توجيه سخط المسلمين إلى أعدائها (روسيا وبريطانيا وفرنسا) باعتبارهم «أعداء الإسلام».

ومع تصاعد الصراع على المصالح بين ألمانيا وروسيا وبريطانيا وفرنسا كانت ألمانيا تعول كثيراً على ترويج فكرة الخلافة والجامعة الإسلامية بين المسلمين لدفع السلطان إلى إعلان الجهاد ضد «أعداء الإسلام» (روسيا وبريطانيا وفرنسا). ومع اندلاع الحرب العالمية الأولى وإعلان السلطان لـ «الجهاد ضد أعداء الإسلام» أسست ألمانيا «وكالة أخبار الشرق» وعينت على رأسها المستشرق أوبنهايم. وكان هدف هذه الوكالة بالضبط «إثارة الشعوب الإسلامية في ممتلكات فرنسا وبريطانيا والقيام بالدعاية والدعاية المضادة حول سير الحرب».

ولكن في الوقت الذي كانت فيه ألمانيا تراهن على تأجيج المشاعر في العالم الإسلامي ضد «أعداء الإسلام» (روسيا وبريطانيا وفرنسا)، كانت بريطانيا تعمل على تأجيج المشاعر العربية ضد الدولة العثمانية؟ ويبدو، كما ينتهي د.سنو في نهاية كتابه، أن «مشاعر العروبة المؤججة من قبل بريطانيا تفوقت في تلك المرحلة على الجامعة الإسلامية التي كانت تعمل ألمانيا على تعميقها بين العرب والمسلمين». وهكذا جاء فشل الحملة على السويس في 1915 والثورة العربية في 1916 لتؤشر على انعطاف في الاتجاه المعاكس وتنهي الحرب لصالح بريطانيا وفرنسا على حساب ألمانيا والدولة العثمانية.

كتاب د.سنو يمثل مرجعاً مهماً لفهم الاندفاع الجديد لألمانيا نحو الشرق والإسلام، ويفكك في هذا الإطار بعض الأساطير عن ألمانيا، كما يقدم نموذجاً رائداً في تسييس الإسلام من الخارج في إطار الصراع الدولي على المنطقة.

* باحث أكاديمي